العرب
الجمعة 2021/05/07
السنة 43 العدد 12053

ضعف الدراما الخليجية يعكس خللا في أطراف الإنتاج

الرقابة الصارمة وهشاشة النص وشحّ الإنتاج.. أزمات مكرّرة تبحث عن حلول

كـرّرت الدرامـا الخليجية خلال الموسـم الرمضانـي الحالـي نفسـها بشـكل فاضح، فتناولت الثيمـات القديمة كالحـب والثأر والعطـاء والجحـود والشـهامة والنذالة من خـلال نجوم مكرّرين دون تجديـد فـي الدمـاء. وهـو مـا كـرّس ظاهرة سـطوة النجم الواحـد علـى حسـاب العمـل، فتضاعفت أزمتها ما جعلها تغرق في محليتها.

ناهد خزام
كاتبة مصرية

تزامـن تاريخ الدرامـا الخليجية مع بداية البث التلفزيونـي في الكويت في مطلع السـتينات من القرن الماضي، وقد عرف الإنتـاج الدرامي طريقه لاحقا إلى بقية العواصم الخليجية الأخرى تباعا، مع احتفـاظ الكويت بريادتهـا في هذا المجال.

وبدا حينها أن هناك نية واضحة من العاملين في هذا القطاع الحيوي الناشئ للمسـاهمة بفاعلية في سـاحة الدراما العربيـة، وهـي نية تمـت ترجمتها في عدد من المشـاريع الخلاّقـة التي ظهرت لمسـاندة الإنتـاج الدرامـي الخليجـي والعربي، ومن بينها على سـبيل المثال "أسـتوديوهات عجمان" التي أنشـئت في سـبعينات القرن الماضـي في إمارة عجمـان بالإمـارات وضمـت العديـد مـن أسـتوديوهات التصويـر الدرامي والسـينمائي المجهزة بأحدث التقنيات. وقد اسـتقطبت هذه الأستوديوهات منذ إنشـائها العديد من المشـاريع الدرامية والسـينمائية علـى مسـتوى الخليـج والمنطقة العربيـة كافة، نظرا للإمكانات والتسهيلات التي تمتّعت بها.

سد ثغرات

خلال العقديـن الماضيين ومع بداية البـث الفضائـي ظهـرت العديـد مـن التحوّلات التي ساهمت في تعدّد أقطاب الإنتـاج الدرامـي الخليجـي وروافده، ما سـاهم فـي تأكيد السـمات الخاصة التـي تُميّز هـذا الإنتاج، والـذي بات الاعتمـاد عليـه خليجيا فـي تزايد بدلا مـن الاعتماد الكامل على المواد الدرامية التـي يتم جلبهـا من عواصـم الإنتاج الدرامـي التقليديـة في مصر وسـوريا ولبنان.

> ضعف النصوص والمعالجة المكرّرة للقضايا الاجتماعية جعلا بعض الأعمال تكاد تكون نسخة مكرّرة من أعمال سابقة

وهذه السمات المشـتركة التي تميّز الإنتاج الدرامي في دول الخليج العربي والسهولة في انتقال الكوادر الفنية بين عواصمها، بالإضافة إلى تقارب اللهجة وعادات وثقافـة المجتمـع، كانت كافية للتعامـل مع الدرامـا الخليجية كوحدة متجانسة ومتعددة الأقطاب.

ورغم هذا الاسـتقرار النسبي الذي يتمتـع به الإنتـاج الدرامـي الخليجي وتعدّد أقطابـه إلاّ أنه ظل يواجه الكثير من التحديات التي وقفت حجر عثرة في طريق تطوره وانتشاره عربيا.

ولعـل المتابـع للإنتـاج الدرامـي الخليجي يدرك جيدا أن الانتشار العربي يمثل هاجسـا لـدى العاملـين في هذه الدراما وأقطابها، كأنه هدف غير مُعلن، ورغم هذا نجد أن هذا الهدف لم يتحقّق إلـى اليوم، أو ربما يكـون أيضا صعب المنـال في ظـل الأوضاع التـي تعانيها الدرامـا الخليجية، هـذه الأوضاع التي تحول بينهـا وبين المنافسـة الحقيقية خارج الإطار الخليجي.

أما الأسـباب فلا شـك أنها تتجاوز حاجـز اللهجـة بكثيـر، وهي أسـباب لهـا علاقة بالمحتوى الـذي يمثل صلب الأزمة في الدرامـا الخليجية التي ظلت -رغـم محاولاتهـا الحثيثة للانتشـار والمنافسـة- مُحاصـرة ضمـن الإطـار الخليجي، على الرغم من انفتاح سـوق البث التلفزيوني على مصراعيه ووجود الفضائيات والقنـوات العابرة للحدود والرقابة.

ويمكننا أن نوجز بعض ملامح هذه الأزمـة على ضـوء الأعمـال الخليجية المعروضـة ضمـن السـباق الرمضاني الحالـي. واللافـت هنا أن هـذا اللهاث السـنوي مـن أجـل اللحاق بالموسـم الرمضاني غالبا ما يفاقم هذه السلبيات التي نشـير إليهـا ونوجزها في شُحّ الإنتـاج وضعف النصـوص والمعالجة المكـرّرة للقضايـا الاجتماعيـة. فهناك العديد مـن الأعمال التي يتـم إنتاجها علـى عجل، كأن الموسـم الرمضاني هو موسـم مراوغ يهبـط علينـا علـى حين غفلة، أو أن توقيته من الغيبيات.

ولا شـك أن هذا الأمـر يعكس خللا مـا فـي التخطيـط أو التنسـيق بـين الأطراف المنتجـة للدراما الخليجية، ما ينعكس على التضارب والعشـوائية في اختيـار النصوص أو عـرض الأعمال. وهناك أعمال أخـرى لا تحظى بالإعداد الجيـد، ويتـم تجهيزهـا علـى عجلـة لسـد ثغرة ما في خارطـة الفضائيات، ليس أكثر.

ويمكننا أن نضرب هنا مثلا الأعمال الكوميديـة التـي عُرضت هذا الموسـم، والتي تميزت بالوفرة مقارنة بالمواسـم السابقة، فمن الملاحظ في بعض ما عُرض من أعمـال أن الحلقات داخل المسلسـل الواحـد تتفـاوت بين الجيـد والرديء كحال مسلسـل "ممنوع التجول" للفنان السـعودي ناصـر القصبـي، فـي حين امتـلأت أغلبهـا بالكليشـيهات المكرّرة كحال المسلسـل الكويتي "أمينة حاف" للفنانـة إلهام الفضالة الذي ناقش ثيمة تعدّد الزوجات بشـكل مكـرّر لا يضيف جديدا.

كما حفلـت أعمـال كوميدية أخرى بتعليقات مستوحاة من مواقع التواصل الاجتماعـي، مسلسـل "سـتوديو 21" نموذجا، دون بذل جهد حقيقي للاهتمام بالحبكـة الدرامية، وهي سـمات تتكرّر كثيرا، حتى أن بعض الأعمال تكاد تكون نسـخة مطابقـة لأعمال أخرى سـابقة للنجوم أنفسهم.

كل هـذا جعـل أحـد المتابعين يقول "رغم وجود المخرجين والكتّاب والممثلين الجيديـن، مـن المؤسـف ألاّ يوجـد في الدراما الخليجية، هذا العام، ما هو مهم أو مميز أو ملفت للانتباه، حيث يمكننا -ودون قلـق التعميـم- أن نضع جميع الأعمال في سـلة واحدة، ونصنفها وفق معايير التفاضل بين السـيء والأسـوأ، والرديء والأكثر رداءة، والتافه والأتفه، وهكذا..".

طروحات مكرّرة

من بين أبرز أسباب الأزمة في الدراما الخليجية يبرز شـحّ الإنتاج، وهو عامل رئيسـي في خروج العديد مـن الأعمال الدرامية بمظهر متواضع. ولعل الحديث عن شـحّ الإنتاج في مجتمعـات تتمتع بالوفرة كدول الخليج العربي أمر مربك للبعـض، لكنه في حقيقـة الأمر يعكس خللا في التنسـيق بين أطراف القائمين على الإنتاج الدرامي في المنطقة.

فالخليـج العربـي لا تنقصه رؤوس الأمـوال اللازمـة لإنتاج درامـي جيد، لكن العمـل الدرامي يمثـل حلقة ضمن صنـاعـة أوسـع تحتاج إلـى توائم بين أطرافهـا كافـة، بداية من الإنتـاج إلى التوزيع وتوفر الكـوادر الفنية اللازمة، ومن دون ذلك قد يحجم أصحاب الأموال والشـركات المنتجة عن المجازفة. ولهذا يفضـل أغلـب المنتجـين التعامـل مع النمـاذج المضمونة لإعـادة تدوير هذه الأموال التي يتم إنفاقها.

وبالتالـي ينعكـس هـذا الأمر على طبيعـة الأعمـال التي تميل عـادة إلى معالجة الموضوعات الاجتماعية، والتي يقتصـر فيهـا التصوير علـى ما يوجد داخل المنـازل الخليجية المغلقة، بأثاثها المُبالغ فيه وسياراتها الفارهة.

ولعل اللجـوء إلى مثل هذه النوعية من الأعمال يأتي لتدني إنتاجها وهامش ربحهـا المضمـون. ويذهـب المخـرج السـعودي محمد دحام الشمري إلى أن مثل هـذه الأعمال "لم تعـد تلبي ذائقة وتطلعـات الجمهور ولهفتـه على دراما مختلفة وجديدة الـروح"، وهو يرى أن معظـم الأعمال المنتجة خليجيا تسـقط في فـخ النمطية والتكرار والسـطحية على مستوى القصص والنجوم والرؤية البصرية.

ومن بين المآخذ الأخرى على الدراما الخليجية اعتمادها على النجم الأوحد، كما هو الحال مع مسلسـل "مارغريت" للفنانـة الكويتيـة المخضرمـة حيـاة الفهـد، فقد بـات الاعتماد علـى النجم الأوحد يمثـل ظاهرة شـائعة اليوم في الدرامـا الخليجية، وهناك مسلسـلات تُكتـب خصيصا لنجـوم بعينهـم، في اجتـرار واضح لمـا يحدث فـي الدراما المصرية مثلا.

ولا شك أن الاستعانة بالنجوم الكبار تعدّ وصفـة مضمونة لتسـويق العمل، غيـر أن الأمر قـد ينطـوي أحيانا على بعـض المجازفات التي تخصم بلا شـك من رصيد هذا النجم أو ذاك.

غير أن اللافت هنا -وهو ما يشـكو منـه الكثير مـن المتابعين- مـا يحدث من لـيّ النصـوص الدراميـة من أجل إعطـاء مسـاحة أكبر لبعـض الفنانات أو الفنانـين، وهـو أمـر بالـغ الغرابة والخطـورة أيضا وسـلوك شـائع على ما يبـدو باتـت تعاني منـه العديد من الأعمـال الدراميـة الخليجيـة. فهنـاك بعض النجوم لا يكتفون بمساحة الدور المرسـومة لهم على الـورق، على الرغم من أن هذه المسـاحة التـي يرونها غير مناسـبة قد تكون أفضل لهم على المدى البعيد، فالمساهمة بدور محدود المساحة لكنـه مؤثر ومكتوب بشـكل جيد أفضل بالطبـع من لـيّ النص كـي يتوافق مع المُستجدات المُقحمة عليه.

ونأتي هنا للآفة الكبرى التي تعاني منها الدراما الخليجية، وهي الرقابة، ولا شـك أن الرقابة على المنتج الدرامي أمر تعانـي منه الدراما العربية بشـكل عام، غيـر أن الرقابـة في الدرامـا الخليجية تبدو أكثر وطأة من غيرها، ما يحول دون التعرّض للكثير مـن المواضيع والأفكار الملحة التي تنتشـر فـي المجتمع والتي يمكن طرحها بشـكل واع على شاشـات العرض، من خلال أعمال درامية تسـهم فـي تقريب وجهات النظر وطرح الحلول والتساؤلات بين أطياف المجتمع.

تابوهات ومبالغات

يرى الشمري أن مثل هذه الموضوعات باتت تمثـل تابوهات مغلقـة الإحكام لا يمكـن إخراجهـا دراميـا دون الدخول في قلاقل وإشـكاليات عديـدة. وأمام ما هو مطـروح على السـاحة من نصوص محدودة يضطـر الممثلـون والمخرجون وكامـل الجهـاز الفني إلـى القبول بما هو مطروح من نصـوص من باب الرزق والمـردود المـادي. ولا شـك أن العراقيل الرقابيـة تُسـاهم في تقليص مسـاحة التعبير والإبداع.

وفي أجـواء كهذه يتم فيها تشـديد الخنـاق علـى مـا يطرح مـن نصوص لا يجـد كتـاب الدراما مفـرا حينئذ من الخوض في مواضيع وطروحات مُكرّرة، أو تنـاول بعـض الموضوعـات الأخرى بشـكل سـطحي لا يرقى إلى المسـتوى المطلوب.

وعـادة مـا يلجـأ كتـاب الدرامـا الخليجيـة إلـى التحايـل فـي صـوغ النصـوص أو المعالجـة الإخراجيـة لبعـض الأعمـال كـي تتوافـق مـع ما تفرضه المؤسسـات الرقابية من شروط أو ملاحظات.

محمد دحام الشمري

> المسلسلات الخليجية لم تعد تلبي ذائقة الجمهور وتطلعاته ولهفته على دراما مختلفة ذات روح جديدة

هـذه الشـروط والملاحظـات قـد تتعـرّض في الكثيـر من الأحيـان إلى تفاصيل عبثيـة، كأن يحتوي العمل بين شـخصياته على امرأة أو فتاة خليجية مدخنة مثلا. وعادة ما تشـمل الخطوط الحمـراء للرقابة العربيـة على الأعمال الدرامية والسينمائية الثلاثي التقليدي: السياسة والجنس والدين.

أمـا في الرقابـة الخليجية فتضيف مـن جانبها عددا مـن المحاذير الأخرى التـي تتسـم بالمبالغة، كوضـع حدود للصورة التي يجب أن تظهر عليها المرأة والفتـاة الخليجية، وهـي صورة ليس لهـا علاقة غالبـا بالعـربي أو العلاقات الاجتماعية المُشينة، ففي معظم الأعمال الخليجيـة يُكتفـي غالبا عنـد التعبير عن المشـاعر بين رجل وامرأة بالنظرات فقط، حتى لو كانت هذه المشـاعر بين أم وابنها.

وفـي تصريح مثير للجدل أعلن أحد مسـؤولي الرقابة الكويتية على الأعمال الفنيـة أن دور الرقابة هو الحفاظ على المكانة الرفيعة للمرأة الكويتية، بحيث لا تظهر في وضـع اجتماعي أو اقتصادي غير لائق.

وهو يرى أنه لا يمكن بأي شـكل من الأشـكال أن تظهـر المرأة في مسلسـل مـا كنادلة فـي مطعم مثـلا. وعلى قدر مـا في هذا التصريح مـن غرابة، إلاّ أنه يعكـس طبيعة المسـاحة الضئيلة التي يتحرّك خلالها كتاب الدراما في الخليج العربـي، وهو ما ينعكـس بالطبع على المحتوى الذي يتمّ تقديمه.

«ممنوع التجول» مسلسل واحد حلقاته تتفاوت بين الجيد والرديء

«مارغريت» ليّ مربك للنصوص الدرامية لصالح النجم الأوحد

«ستوديو 21» كوميديا مستوحاة من مواقع التواصل الاجتماعي

«أمينة حاف» مسلسل يناقش ثيمة تعدّد الزوجات بشكل مكرّر